مفارقات فرويد السيكولوجية

د. حسن حماد (ضيف شرف المؤتمر)
أستاذ الفلسفة الحديثة والمعاصرة وعنلم الجمال
وأستاذ كرسي الفلسفة لليونسكو
والعميد الأسبق لكلية الآداب
جامعة الزقازيق

مفارقات فرويد السيكولوجية

لعل السؤال الذي يفرض علينا نفسه منذ البداية: ما "المفارقة"، وما طبيعتها: هل المفارقة هي حيلة عقلية؟ هل هي أداة إبستمولوجية؟ هل هي أسلوب فني أو أدبي، هل هي ذات طبيعة منطقية؟ هل هي مقولة أنطولوجية، هل هي جزء من كينونة وبنية الوجود؟ هل هي أداة للمعرفة أم أداة للتضليل وغياب اليقين؟ هل يوجد معيار نستطيع من خلاله أن نفهم المفارقات، هل المفارقة هي التناقض والتضاد والتنافر؟ هل نحن نصنع المفارقات أم أن المفارقة هي التي تشكل بنية هذا العالم وبنية الوجود؟ هل ترتبط المفارقة بالمنطق الصوري القديم أم بالمنطق الجدلي ومنطق الصيرورة والتغير؟

كل هذه الأسئلة وغيرها حاصرتني ودوختني عندما حاولت أن أمسك بقلمي كي أكتب مقالاً عن مفارقات فرويد السيكولوجية.

في حدود رؤيتي لإشكالية هذا الموضوع أرى أن المفارقة هي أساس العالم، وهي جزء من بنية التفكير، وبنية اللغة، وبنية العقل، وبنية الجسد، وبنية الوجود بشكل عام ... والمفارقات ليست اكتشافاً حديثاً أو معاصراً، بل هي ترتبط بوجود الإنسان في العالم؛ فقصة الخلق نفسها هي قصة مفارقات تتضمن علاقة الإنسان بالطبيعة، وبنفسه، وبالآخر، وبالحرية، وبالإله. والمقدس هو نفسه مفارقة فنحن لا ندرك المقدس إلا من خلال الدنيوي. وكلام الله الذي تكلم به في كتبه المقدسة هو لغة بشرية. والمسيح يتضمن وحدة الإلهي والإنساني، والحياة تولد من رحم الموت ... وهكذا نجد أن المفارقة هي القبول باجتماع النقيضين، ولذلك قالوا عنها إنها تناقض ظاهري، أو تناقض عابر أو خادع، وهذا ما يغرينا بأن نزعم بأن المفارقة ترتبط أكثر بالمنطق الجدلي، ولا ترتبط بالمنطق الصوري الساذج. المنطق الجدلي هو منطق المتناقضات، والمتنافرات، والمفارقات. جدليات هيرقليطس، وهيجل، الماركسية، وما بعد الماركسية هي التي فتحت عيوننا أكثر على فكرة المفارقة، وهي التي أفسحت المجال لقبول مالا يُقبل في فلسفات ما بعد الحداثة، والمنطق الغائم، ونهاية اليقين، وفلسفة الكوانتم، واللاحسم وغيرها.

إن القبول بالمفارقة هو قبول بالتعدد والتنوع، وهو تحرر من البعد الأحادي، ومن النظرة السطحية الضيقة، ومن الثنائيات المنطقية والفلسفية واللاهوتية الملعونة: ثنائيات "إما – أو"، تلك الثنائيات القمعية التي تلائم الفكر الفاشي، وتتسق مع الرؤى الدوجمائية التي ترى أن الوجود إما أبيض أو أسود، وأن العالم إما شر أو خير. هذه الثنائيات الملعونة هي التي أوجدت مدينة الله (أوغسطين)، وهي التي أوجدت الفرقة الناجية والفرقة الهالكة، وحزب

الله، وحزب الشيطان ... هذه الثنائيات تتهاوى وتصبح ضرباً من التفكير القمعي المظلم أو الأسود أمام منطق المفارقات.

المفارقة هي إيمان بثراء هذا الوجود، وبخصوبة التجربة البشرية ووثوق بنسبية القيم والمعايير، والانفتاح اللامحدود على الآخر وعلى الحياة، وانعتاق من أسر الرؤى الدوجمائية والسكونية للوجود، فالعالم يتغير، ونحن نتغير، وكل شيء حولنا خاضع للتغير ولا يوجد يقين أو كلمة نهائية في دفتر هذا الوجود!

تاريخ الفكر الإنساني إذاً هو تاريخ المفارقة، وكل الفلسفات بدءاً من سقراط وحتى الآن لا تخلو من مفارقات: مفارقات زينون الإيلي(٤٩٠ ق.م) حول الحركة، والزمان، والمكان واللانهاية، تلك المفارقات التي تقوم على فكرة عبقرية هي الانقسام اللانهائي للمكان والزمان، مفارقة التهكم عند سقراط، مفارقة عالم المثل وعالم الحس عند أفلاطون، مفارقة الإنسان الذي أصبح مقياساً لكل شيء ولأي شيء عند السفسطائية، مفارقة الوجود بالقوة والوجود بالفعل عند أرسطو، ومفارقة التطهر بالألم التراجيدي عند أرسطو أيضاً، مفارقة مدينة الرب ومدينة الشيطان عند أوغسطين، مفارقة كلام الله المحدث وكلام الله القديم، والصراع بين المعتزلة والسنة، مفارقات هيجل وجدلياته التي كانت وراء كل الجدليات المادية الماركسية الثورية، مفارقات دريدا في التفكيك، ومفارقات ميشيل فوكو في العلاقة بين المراقبة والمعاقبة، والسلطة والجسد، ... مفارقات هربرت ماركوزه حول التحرر السياسي والتحرر الجنسي، وبين الجسد الإيروسي والجسد السلعي، مفارقات فروم حول اغتراب الذات والاغتراب عند الآخرين ... الخ.

كل هذا وغيره يؤكد أن المفارقة هي سمة الفكر مثلما هي سمة الواقع والوجود، فليست المفارقة أمراً نظرياً فحسب بل هي مسألة ترتبط بالممارسة والحياة المعيشة، فنحن نمارس المفارقات في حياتنا اليومية ليل نهار سواء في علاقاتنا مع أنفسنا أم مع الآخرين، وحتى في علاقاتنا مع الأشياء، ومع الطبيعة ومع الله ومع المقدسات !!.

وتمثل المفارقة واحدة من أهم التقنيات الفكرية التي يستخدمها الأدباء، والفلاسفة، والشعراء، والعلماء من أجل الكشف عن طبيعة هذا الوجود، ومن أجل تقديم أو طرح رؤاهم الفكرية والفلسفية، ويعتبر فرويد واحداً من أهم المفكرين الذين قدموا رؤية فلسفية متماسكة حول الإنسان والعالم والوجود عبر تقنية المفارقة. ولن نجاوز الحقيقة إذا قلنا إن المفارقة تلعب دور البطولة في التحليل النفسي الفرويدي،وأول المفارقات التي تقوم عليها نظرية التحليل النفسي هي مفارقة الشعور واللاشعور، فنحن وفقاً لفرويد نحيا ظاهرياً بالشعور،

ولكن هذا الشعور ليس إلا ألعوبة في أيدي اللاشعور، أو إن شئنا التبسيط: الشعور بمثابة خشبة المسرح التي تظهر عليها الأحداث المتشابكة، والتاريخ البعيد الذي يضرب بجذوره في أعماق الطفولة المبكرة، وهو جماع تلك الذكريات والمخاوف المطمورة المكبوتة والمنسية داخل الذات الإنسانية، لكن هذا العالم الخفي هو الذي يتحكم في كل سكنات، وحركات، واختيارات، وقرارات الشخصية، إن اللاشعور هو الذي يوجه، ويتحكم، ويسيطر على كافة أشكال السلوك الظاهري الذي يتجلى على سطح الشعور.

ومن المفارقات الموحية جداً في نظرية فرويد مفارقة غريزة الحياة وغريزة الموت، أو دافع الحياة ودافع الموت: دافع الحياة دافع يتجه بالإنسان إلى حب الخير وعشق النور، والاتجاه إلى التطور وإلى الانتماء والارتقاء. أما دافع حب الموت، فهو غريزة أو دافع يستهويه الموت والظلام، وتدمير الحياة، ورائحة الدم، ويميل إلى مضاجعة الموتى، ومقت الحياة والهروب من النور ... الخ.

ويوضح فرويد أن دافع الموت ودافع الحياة ليسا منفصلين، وإنما يمتزجان معاً عبر فعل الإيروس، عبر الفعل الجنسي، الجنس هو لقاء وامتزاج ما بين إيروس (إله الحب) وثانوتوس(إله الموت). في الإيروس أو الدافع الجنسي تجتمع غريزة الحياة بغريزة الموت، فالدافع الجنسي ينمي الحياة، ويحفظ النوع، ويجسد فعل الحب، وهو في الوقت نفسه يتضمن بعداً تدميرياً وعدوانياً، فالرغبة تستهلك ذاتها وتدمر شيئاً من موضوع رغبتها. وفي الاتصال الجنسي بين بعض الحيوانات يحدث أن يموت أحد الطرفين أثناء عملية الممارسة الجنسية لأن غريزة الموت – من وجهة نظر فرويد –تجد الحرية الكاملة لتحقيق أغراضها بعد أن يتم طرد إيروس في عملية إشباع الشهوة.

ولا يمكن الحديث عن المفارقات عند فرويد دون أن نلمس مفارقة السادوماسوشية، فالسادية والماسوشية برغم أنهما يختلفان في طبيعتهما، إلا أن فرويد يرى أن الماسوشية هي سادية عجزت عن التحقق في موضوع خارجي، فارتدت إلى ذاتها، ويرى أن السادي يمكن أن يتحول بسهولة إلى ماسوشي تحت تأثير عقدة الإحساس بالذنب. إذن المسافة بين السادية والماسوشية ليست شاسعة كما نظن، إنها قريبة جداً، فالسادي يمكن أن يمارس ساديته مع من يخضعون لسلطته، ويمارس في الوقت نفسه الماسوشية مع رؤسائه وسادته، معظم رجال السلطة يعايشون هذه الازدواجية، ازدواجية السادي –الماسوشي.

وترتبط مفارقة السادوماسوشية بمفارقة أخرى هي مفارقة الحب والكراهية، ففي أعماق تجربة الحب يوجد شيئ من الكراهية، وفي أعماق الكراهية يوجد شيئ من الحب.

لا يوجد حب خالص، ولا كراهية خالصة، وعندما يفشل الحب، كثيرًا ما تتحول المشاعر الجياشة المتأججة إلى مشاعر كراهية متطرفة ومدمرة !

ومن المفارقات الفرويدية العميقة، مفارقة القمع والحضارة، ففي كتاباته ذات الطابع الحضاري مثل: "مستقبل وهم" ، "ومنغصات الحضارة" يرى فرويد أن الحضارة نشأت نتيجة كبت "الليبيدو" أو الدافع الجنسي الذي نظر إليه فرويد بوصفه دافعاً مدمراً وبدائياً. فالفكرة الساذجة المأخوذة عن فرويد أنه كان داعية للإباحية، ولكن الحقيقة أن فرويد كان داعية لحضارة الكبت، وكان ينظر إلى الكبت بوصفه ظاهرة إيجابية هي عنده أساس التمدن، وأساس الحضارة، وأساس الارتقاء !.

والمفارقة الأخيرة التي سنتعرض لها هنا هي مفارقة "الأب وقتل الأب" فرغم أننا كثيراً ما نتوحد بسلطة الأب، ورغم أن لكل شيء أب، ولا يمكن أن نتخيل كائناً أو مخلوقاً بلا أب، إلا أن فرويد يصر على وجود صراع لا ينتهي بين سلطة الأب ورغبة الأبناء في التحرر من هذه السلطة. والصراع بين الأب والأبناء عند فرويد هو صراع على الجنس، على المرأة. ورغم أن فرويد قد اعترف في كتابه "منغصات الحضارة" أن الأبناء قد اجتمعوا وتوحدوا وقتلوا الأب، ومع ذلك لم يستطع فرويد أن يتخلص تماماً من شبح الأب القتيل، إذ ظل شبح الأب القتيل ممتداً ومستمراً عبر حظر الاتصال الجنسي بالمحارم، وعبر المؤسسات الدينية التي ولدت من رحم الأب القتيل في صورة الأب اللاهوتي أو التوتمي، إن إصرار فرويد على ربط الحضارة بالكبت جعله يعجز عن التخلص من هيمنة الأب الثقافي، خاصة وأن الحضارة لديه ذكورية تتأسس على آلية الكبت، وقمع وترويض الجسد، فضلاً عن أن الابن عند فرويد يتماهى مع الأب، ويعيد إنتاج صورته الاستبدادية في الأبناء والأحفاد إلى مالا نهاية.

وأظن أن فرويد نفسه كان ذكورياً حتى النخاع، فأفكار مثل ماسوشية المرأة، ودونية الأنثى ومعاناتها من الشعوربالحسدالقضيبي ... هذه الأفكار وغيرها تعزز فكرة أن فرويد كان أباً ذكورياً بامتياز، ولم تكن أسطورة قتل الأب سوى لعبة أو حيلة خداعية استطاع بها فرويد أن يُخفي من خلالها صورته الأبوية المرعبة، ونزعته الذكورية المتطرفة.